البناء السانـد للذات
وتـحقق الهويـة في الروايـة العراقـية
Self-Supporting Construction and Identity Verification in the Iraqi Novel

د. سمير كاظم الخليل

Dr. SAMEER ALKHALEEL

كلية الآداب

جامعة الإمام الصادق عليه السلام

College of Arts – University of Imam Al – Sadeq (PUH)

الملخص

كل سرد من المفترض أن يكون أصيلاً، وكل هوية سردية تكون متعددة ومجزأة وغير مكتملة، فالهوية تواتر كفاحي، مزعزع ومؤجل دائماً، لأن الهوية تتفاوض دائماً مع الخبرات الثقافية الخاصة بالنوع والجنس والطبقة والعرق والطائفة وسلامة العقل والجسد، وتدخل في تفاوض لا ينتهي مع أجيال القراء الذين يحبون ويجيدون الجدال والمناوشة. إنَّ جسم الهوية يتحدد بالصدوع والندوب التي وضعتها عليه علامات متعددة وبصمات قاتلة تمظهر قوة هذا الجسم وتبدل شروط وجوده وكذلك تغيّر شروط نفيه، ومدى تورط الآخرين والعلل الدنيوية الجمّة في إختراقه، ففي رواية (شارع الزعيم) لاحظنا كيف تحدث تشكلات الهوية الفردية والهوية الجماعية في آن واحد، وتحت ظروف قاهرة واشتراطات تفرضها ضربات قسرية، بالرغم من المقاومة التي تبديها الهوية العامة لتوضح ما التبس في حياة الناس، وهذا ما انتبه اليه المؤلف بفكر ثاقب ووعي وقاد.

الكلمات المفتاحية: البناء، الذات، الهوية، الرواية العراقية

Abstract

Every narration is supposed to be original . And every narrative identity is to be multiple, fragmented and incomplete. Identity is a periodic struggle, unsettled and always delayed, because identity always negotiates with cultural experiences of gender, sex, class, race, sect, integrity of mind and body . It enters into an endless negotiation with generations of readers. Who love and are good at arguing and discussion. The body of identity is determined by the cracks and scars are placed on it by multiple signs and fatal fingerprints that show the strength of this body and the change in the conditions of its existence as well as the change in the conditions of its denial . The extent of the involvement of others or the many worldly ills in its penetration. In the novel of (The Leader's Street) . We noticed how the formations of individual identity and collective identity are occurred simultaneously . And under compelling circumstances and conditions are imposed by coercive strikes, despite the resistance shown by the general identity to clarify what is confusion in people's lives . This is what the author paid attention to with insight, awareness and leadership.

Keywords : Construction , Self , Identity , The Iraqi Novel

الرواية العراقية وتحقق الهوية

في رواية (شارع الزعيم)[1]، للكاتب متعدد المواهب والاهتمامات "عباس لطيف" نجد أن المكان قد حاز على اهتمام المؤلف أكثر من أي شيء آخر في الرواية، وتحوّل إلى يقين عبثي سربل الموت بلباس الذكرى التي تتمكن من النفس العائشة فيه، وانتزاعها من احتوائية الواقع، ولم يُبق علاقة لها مع الواقع إلا الإنبهار الذي تحدثه الأوهام، أو الصدمات التي تجيء بها الحروب الواقعة على هذا الواقع كالقدر المكتوب والمكنون في حركة التاريخ السياسي لهذا الخراب الذي لم يكف بعد عن كونه وطناً.

إنَّ من يتكلم عن المكان يتعرض بالضرورة لتأريخ هذا المكان، ومن يتكلم عن التأريخ ينقب بالضرورة عن الأصل الجينالوجي لحركة هذا التأريخ المندفع قدماً نحو صنع النكبات والكوارث، ومن يتعرف على المنبت (الأصل الجينالوجي) يطرح بالضرورة ثنائية السمو والوضاعة، الحق أو الباطل على طاولة النقاش، لأن نظافة المكان الرحم من الرجس الشيطاني ضرورة لا محيص عنها في شجرة النسابة الوطنية والمورثات الجينية، هذا ما تعلمناه من بانوراما التأريخ العراقي الذي تحوّل بمرور الهزائم وكر الإنكسارات إلى جغرافيا فقط «فلم يبق من التأريخ سوى الجغرافيا»[2].

(١) شارع الزعيم، رواية، عباس لطيف، دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ط١، ٢٠١٨، وكل الإحالات الواردة في البحث مأخوذة عن هذه الطبعة وحسب أرقام الصفحات المثبتة في المتن.

(٢) نحن والتراث، د. محمد عابد الجابري، دار الطليعة- بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص١٢٣.

على حد تعبير السياسي الألماني الأبرز "بسمارك"، لأنه في تلاشٍ مستمر إلى الحد الذي أختزل إلى أسماء مواقع ومواقع أسماء بدون دلالة إنسانية ولا دليل عزيز، لأن الحقائق الصادقة قد أزيلت ومحيت مع تعاقب الزلازل والانقلابات، لذلك نرى أن تشظياً حقيقياً قد أصاب صورة الوطن بشكل لا علاج له ولا ترميم مرتجل: «لكني تأملت الوضع العام وشكل الحياة الكئيبة والأيام الكالحة التي تطوق الأرواح قبل الأجساد. نحتاج دهراً من الفرح لكي نرمم كثبان الحزن التي تسللت عنوة إلى أعماقنا، ولا أدري متى يمر قطار الفرج لينتهي كل هذا العبث الرمادي، أحاول أن أتماسك وأحاصر بعض الدموع وقد أعجب من اعتقاد بعض الناس بأن المعيب أن تنزل دموع الرجال. لكن ما نحن به يبيح كل المحظورات فماذا تفعل إزاء مدينة تحولت إلى قطع من الكونكريت لحماية نفسها من أشباح الموت التي تهرول في كل مكان.

كانت مدينة مزدهرة بأنوارها وجمالها وأصبحت أول مدينة بالرعب والنفايات والظلام. مدينة الحياة الصاخبة تحولت إلى مدينة الموت الذي قد تفاجأ به وأنت في غرفة نومك. وأسخر من مقولة ثمن المرحلة الباهض، وفي كل زمن وعصر من شوارع هذه البلاد نسمع بهذه الكلمات:

- ❖ إنَّ هذه المرحلة الصعبة التي تمر بها البلاد تتطلب منا التضحيات الجسام من أجل مستقبل وضاء وانتظر أجدادنا وأباؤنا ونحن معهم ولم يأت المستقبل الوضاء بل كل مرحلة تنعى الأخرى والقادم اسوأ دوماً». (ص١٣٨ وما بعدها).

عندما يتحوّل المكان إلى بطل محوري:

في هذه الرواية تحوّل شارع الزعيم (وهو أحد شوارع العاصمة بغداد) إلى بطل محوري يشد كل الشخصيات إليه، جيئة وذهاباً وصراعاً، ويحكم العلاقات بين الحكايات الرافدة بشبكة من نسيج سردي لا فكاك منها. فما هو هذا المكان الذي حوّله المؤلف الحقيقي إلى عصب الرواية الأول؟ إنه الشارع الذي سكنه الزعيم "عبد الكريم قاسم" بعد نجاح ثورة ١٤/ تموز/ ١٩٥٨، وأخذ بريق اسمه من بريق شعبية الزعيم مفجر الثورة التي حوّلت العراق من مملكة إلى جمهورية: «إنك تذكرني بأبي، كان يعشق عبد الكريم قاسم، ومن أغرب المصادفات أن يشتري بيتاً في شارع الزعيم في بداية ١٩٥٩، كان يرى سيارة الزعيم وهو يغادر إلى وزارة الدفاع ببزته العسكرية ولم يكن بحماية كبيرة، ليس سوى السائق والمرافق، يقول أبي أن سر عبد الكريم قاسم يكمن في زهده ونزاهته، وأنه جاء في مرحلة صعبة ومضطربة ولم يكن يفهمه أحد وذهب مثل القربان لم يرحمه رفاقه وحرم حتى من قبر يحتضن جثمانه». (ص٢٤ وما بعدها).

«يمكنك أن تسير معي حتى البيت فهو قريب، فشارع الزعيم يقع بالقرب أو مقابل فندق الشيراتون، أتعرف أن بيت الزعيم ظل مهملاً بعد مقتله، وهو يعود إلى دائرة الأموال المجمدة لليهود ويقال بأنه سيكون مقراً للمجلس البلدي». (ص٢٧).

يعطي السرد شكلاً عموميا لمسائل تبدو خاصة وشخصية جداً، من هنا تتحول القصة الفردية أو الحكاية الشخصية إلى فعل اجتماعي وسياسي عام «إنَّ النسيج الرمزي للحيوات المحلية والدور العام الذي تلعبه القصص في خلق المجتمعات وتصميمها، لا يعكس الواقع الاجتماعي والتعبير عنه فقط، ولكنها تشتمل الحياة الاجتماعية أيضاً لمجتمعات ذات أصول تأريخية راسخة في القدم»[١].

(١) دلالات العلاقة الروائية، د. فيصل درّاج، مؤسسة غيبال للدراسات والنشر، نيقوسيا (قبرص)، ط١، ١٩٩٢، ص١٣٢.

يحدث كل ذلك في نصوص وسياقات ثقافية تحدد ما إذا كانت تلك القصص قد حققت أداءً يجب فهمه قريباً من تلك البيئة وانطلاقاً من تلك الأرضية، وما البيئة إلا خزان كبير للتأريخ، من هنا يأتي التمفصل الأكيد بين بنى السرد الخاص والذاكرة الجمعية، مع كون الذاكرة الفردية نفسها شكلاً من الذاكرة التاريخية، فدائماً ما نجد أن هناك خبرة سابقة على السرد، خبرة أصيلة قديمة قدم المكان تمثل المادة الخام للذاكرة، مادة خام تفرض عليها بنى السرد لاحقاً، لأن هذه الخبرة منذ البدء مندرجة في تصميم سردي غامض لكنه متجذر بصورة عميقة: «كنت أسارق النظر وأنا أسير مع "أحلام" بهدوء وتأمل وقد دخلنا شارع الزعيم من جهة الكنيسة، كان كل شيء هادئاً. كان المكان شبه مهجور في يمين الشارع هناك محل صغير لتصليح الدراجات الهوائية وبعده يقع عدد من الأسواق وفي الوسط يقع مكتب لبيع العقارات، وفي وسط الشارع من جهة اليسار تحوّل بيت الزعيم إلى مجمع سكني يحتوي على عدد من الشقق بعد أن أهمل ردحاً من الزمن وتحوّل في يوم ما إلى مجلس بلدي.

لا شيء يميز المكان الذي شهد الكثير من الأحداث والوقائع المثيرة، وها هو يتحوّل إلى مكان لا يثير اهتمام أحد، تطلعت "أحلام" إلى بيتهم ولمحت دمعها وهو يتقاطر ويدها لا تبرح مسح وجهها المبلل بالأسى. أعرف أن شريطاً من الذكريات يتوهج في رأسها وهي تستعيد طفولتها ومدرستها وملاعب صباها وأباها وطيبته وحنانه وعشقه للزعيم.

حين انتهى بنا الشارع بسرعة وجدنا أنفسنا أمام فندق الشيراتون الذي فقد من بريقه القديم وصار محاطاً بالأسلاك الشائكة وقطع الأسمنت الكبيرة. ألقت "أحلام" نظرة إلى الشارع وهي تودعه وتشير إليّ بأن نستأجر سيارة للذهاب إلى البيت، حاولت قبل أن أرفع يدي لإحدى السيارات أن أخفف عنها بعض الأحزان والذكريات التي هاجمتها بتأثير وجودنا في هذا المكان.

قلت لها: دائماً يشعر الإنسان بالحنين الغريب إلى الأماكن القديمة، ومهما كبر الإنسان فإنه يحتاج إلى زيارة البيت والمدرسة القديمة، حيث تبقى الأماكن ويرحل الناس ويصبح كل إنسان تحت نجمة، هناك من ماتوا، وهناك من سافروا، وهناك من اختفت أخبارهم تماماً، لا يبقى سوى الأطلال والذكريات وأناس جدد لا نعرفهم يغزون المكان.

حين وصلنا إلى البيت لاحظت أنها لم تخبر أمها بزيارة بيتهم القديم فهي تعرف أن ذلك يسبب ألماً كبيراً ويثير شجونها بعد أن تماثلت للنسيان، فالتذكير الدائم يجعل الأرواح والأجساد تذوي ويسود الشحوب كل شيء». (ص١٦١ وما بعدها).

تشكلات الهوية السردية:

كل سرد من المفترض أن يكون أصيلاً، وكل هوية سردية تكون متعددة ومجزأة وغير مكتملة، فالهوية تواتر كفاحي، مزعزع ومؤجل دائماً، لأن الهوية تتفاوض دائماً مع الخبرات الثقافية الخاصة بالنوع والجنس والطبقة والعرق والطائفة وسلامة العقل والجسد، وتدخل في تفاوض لا ينتهي مع أجيال القراء الذين يحبون ويجيدون الجدال والمناوشة. إنَّ جسم الهوية يتحدد «بالصدوع والندوب التي وضعتها عليه علامات متعددة وبصمات قاتلة تمظهر قوة هذا الجسم وتبدل شروط وجوده وكذلك تغيّر شروط نفيه، ومدى تورط الآخرين والعلل الدنيوية الجمّة في إختراقه»[1]، ولنأخذ الفصل (١٦) من الرواية مثالاً، فقد لاحظنا كيف تحدث تشكلات الهوية الفردية والهوية الجماعية في آن واحد، وتحت ظروف قاهرة واشتراطات تفرضها ضربات قسرية، بالرغم من المقاومة التي تبديها الهوية العامة لتوضح ما التبس في حياة الناس، وهذا ما انتبه اليه المؤلف بفكر ثاقب ووعي وقاد:

(١) في العقل والكتابة والختاره، جاك دريدا، ت: د. أمينة غصن، دار المدى، للثقافة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٢، ص٤٧.

«الذي أكد أن ما حدث كان يجب أن يحدث منطقياً قبل ثلاثة عشر عاماً لكن الترتيبات ما وراء البحار اقتضت أن تمرر الكثير وأن يسحق الموت الغذائي كل الناس كان زمناً ترويضياً. ومن ثم تعبر الدبابات جسر الجمهورية وتسير في شارع السعدون وتقف في ساحة الفردوس وتسقط كل الجداريات والتماثيل في مهرجان اختلط فيه كل شيء وبالقرب تماماً من شارع الزعيم.

كان الفجر الخميس العشرين من آذار للعام الثالث بعد الألفية الجديدة يوماً صاعقاً تتوامض فيه ألسنة النار التي طوقت بغداد، من كل زاوية، معارك في كّل مكان وكل زاوية حول المدن وفي أعماقها السحيقة. كل شيء وكل الأسلحة والطائرات والصواريخ تنطلق من مكان، وتشتد المواجهات حول بغداد وتطول أيام معركة المطار الغامضة ودبابات تقترب وتطوق القصر الجمهوري وأغلب الهياكل الحكومية وفندق الرشيد. تبخر كل شيء في لحظة ملتبسة أودت بكل شيء، وفي الأيام التالية ساد الإنهيار والأجواء الجهنمية. خرج الناس إلى الشوارع رغم رائحة البارود ورماد المشهد والطيران المنخفض». (ص١١٧ وما بعدها).

«- نحن لا ندافع عن الماضي، فلا أحد له الشرف في أن يدافع عن عقود من الأخطاء والحروب والحياة البائسة والأناشيد والشعارات ولكن يجب التفكير منطقياً، هل جاء المارينز من أجل عيون الناس؟ هل أنفقوا هذه الأموال والأسلحة كرعاية اجتماعية؟ هل عشرة آلاف ميل التي قطعوها هي لكسب ود الناس». (ص١١٨ وما بعدها).

«- لا أدري لماذا الاصرار على إشعال الحرائق في كل البنايات، هل هو حرق للذاكرة أم حرق لسجلات الحكومة لكي نبقى بلا سجلات. لماذا تحرق دوائر الجنسية والعقارات ووزارة التجارة. إنها لحظة مختلطة وغريبة، لا أحد يعترض على ضرورة إمحاء وسقوط الماضي ولكن يجب أن يكون المستقبل أفضل وإلا فما الجدوى من كل ما حدث». (ص١١٩ وما بعدها). «ولولا أن الناس يمتلكون إرثاً من الأعراف ومظاهر

الألفة لتحول المجتمع إلى غابة شرسة يقتل فيها القوي الضعيف ويسود منطق القوة، لكن الأيام تتواتر والناس يحكمون أنفسهم بأنفسهم بدون وزارة الداخلية ودون الأمن العام ودون حتى شرطة المرور.

وقد يكون "سعيد" أكثرنا انتباهاً لقضية تذويب واخفاء الدولة والاصرار على تفكيك أجهزة حفظ الأمن. نقطة خطيرة أودت إلى هذه الفوضى، أما كان من الضرورة اسقاط هياكل السلطة وبقاء هياكل الدولة والجيش». (ص١٢١ وما بعدها). «... لكني وكما كل الناس ننتظر أن تستقر هذه العاصفة لكي نبدأ نخطو من جديد في قيامة أرضية أخرى». (ص١٢٣).

الهوية السردية إذن، هي كشف ناجز لخبرات حاملها في فضاء اجتماعي مخصوص. وإنَّ السارد العليم، راوي القصص الجريح يناضل بقوة لتحويل اعتلالاته الكتيمة إلى قصة مقنعة، عن جسم الهوية، وعن جسم حاملها، ومن خلال الجسم الكتابي الذي تحوّل إلى حامل أدائي لهموم هووية تستمد قوتها ويقينيتها من قوة ويقينية الأمل الذي ما عاد نفسياً- داخلياً، ولا تعبيراً ذاتياً، وإنما تفاعلاً كيميائياً- فيزيائياً للعمليات التخييلية الشخصية مع توقعات الوضع التاريخي للشخصيات وهي تندرج ضمن متتابعة الرموز الثقافية المائزة والاستعمالات الاجتماعية القارّة، بمعنى آخر، تنشبك الهوية السردية في هذه الرواية مع المنظومة الاجتماعية بقدر ما تنشبك مع المفاهيم الذاتية لفرد مفرد، منعزل تماماً عن سيلان الحياة.

وعلى المستوى الكتابي- النصوصي تأخذ إعادة صياغة الاحتمالات وبالنسبة للمؤلف الحقيقي شكل نقداً جارحاً للمقولات التي يعترف بها المجتمع بوصفها سرديات كبرى. من هنا تغدو الرواية برمتها ليست رصداً مجهرياً لتحولات الشخصية/ الشخصيات فقط، وإنما تغدو رواية آيديولوجية مستنفرة ومستعرة لإدانة الإنتهاك بكل أشكاله وصوره. ولنقرأ بعض منطوقات الفصل (١٧):

«من بقي ساكناً عليه أن يتحمل كل نتائج الانسحاق والمكابدة فكل شيء بدا غير حقيقي، وإذا كان الوضع أو النظام السابق عالم من الاستبداد ومغامرات الحروب وقمع الحريات، فإن وقائع اليوم أعادت كل ذلك وبطرق جديدة وصور وشعارات وجداريات ولذا ظل مرسم "سعيد" يستقبل الزبائن والأحزاب ليرسم لوحات وجداريات ويخط الشعارات الجديدة.

كان في الماضي صاحب القبعة يصرخ ويهتف ويتكلم وحده وما على الآخرين سوى الإصغاء، واليوم الجميع يصرخ ويهتف ويتكلم دون أن ينتبه أحد. ولأن الحدود خاوية تسلل الغرباء الملثمون والمرتزقة إلى المدن فأشاعوا قيامة من الحرائق والإنفجارات». (ص١٢٥).

«- لماذا ننجب الأولاد ولا توجد غير مهنة الشرطي، ألم يصبح ابنك شرطياً يا صديقي سعيد. المهن مرتبطة بالمراحل. هذه مرحلة العشوائيات والشرطة والمرشحون المزورون ومعقبو معاملات الجوازات ومؤلفو الكتب المثيرة، والصحافة الفضائية، والقنوات المأجورة، ومهربو بحر إيجة .

كان "حسن" منفعلاً في هذه الليلة كغيره لما يحدث من أحداث ووقائع وطاحونة الدم تسحق في كل يوم أعداداً كبيرة من البشر ولا يبدو في الأفق أي أمل، وأغرب ما نشهده هذه الغربان السود والجراد الأصفر الذي يغزونا بهذه التفجيرات العدمية يومياً باسم التكفير والعقائد الفاسدة والجذام العقلي. يموت كل يوم الشيوخ والأطفال والنساء والرجال العسكريون والطلبة والمصلون، الموت في كل مكان». (ص١٢٨).

تحويل الهوية إلى موضوع (سيسيو-ثقافي):

يوحي السرد (السيمتري) المفصول عن السرد الأسطوري والموازي له، والمفصول عن السرد الفنتازي والمحايث له بأن التحوّل والإنتهاك ليسا محددين ثابتين أو متحركين أو نهائيين.

لقد استوعبت الرواية هذه حكايات عن علل مختلفة في سرد يسير على الحافة القاطعة والخط الخطير الفاصل بين الموت والنجاة، السلامة والانتهاك، العقل العاقل والجنون المطلق، لذلك نتج عن ذلك خطاب انتهاكي تخلل جسد الأداء السردي متلفتاً باستمرار، مسترداً دائماً خبرات ضرورية لإسناد السيادة المنتهكة، وهذا الإفشاء الصريح في الحكي، وكسر الصمت وتحويله إلى جلبة عالية الصوت، يزيد من نسب زيادة السيادة على حساب نسبة الحُرس المقصودة من خلال الرصد والمراقبة، إستراق السمع والنظر المدقق الممعن للمحاول (أقوال الناس وآراؤهم، جس نبض الشارع)، التحديق المباشر بالهوّة، قراءة ما يدور في أذهان رفاق الدرب من خيانات وارتكابات و«الدخول في صراع مفتوح من المعاني للفوز بمعنى كبير مزدوج بوصفه فعلاً وتمظهراً وتمثيلاً لظروف الحكي والحيوات الحاكية وتبعات الأداء السردي في خطابيه: المباشر وغير المباشر»[1].

في هذه المواجهات التي يخوضها السارد العليم وشخصياته الساندة مع المعاني الموصومة بالإثم والجريمة، يتم تنفيذ وطعن وإعادة جدولة لندوب الهوية ورضوخها بدل نفيها بالمطلق، وتحويلها إلى موضوع سوسيو- ثقافي يقف بالضد من كوابيس الماضي، والضغوط الهائلة التي يقوم بها جمهور شبحي يمتهن الإنتهازية ويجيد الوصول إلى مفازات القوة والنفوذ: «- هذه نتائج ومن المؤكد أنها ترتبط بالأسباب والمقدمات، إنها مرحلة تختزل كل الخراب الماضي، من حكومات جائرة وحروب عبثية وتعليم

(١) بورخس كاتب على الحافة، بياتريث سارلوا، ت: خليل كلفت، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤، ص١٣٧.

فاشل وعصور من الجهل والتزوير وهيمنة التافهين والجهلة والأمين والعسكر وقطاع الطرق والأشقياء وتجار الدين، إلى جانب العصابات الهوليودية القادمة من وراء البحار، إنها خلطة عجائبية وكلها تعمل لقتل الإنسان والحلم والجمال، إنهم مجندون لقتل الحياة وهم يحملون لوثة جنون البشر ضد البشر». (ص١٣٣).

«وفي خضم هذه الأخبار وما تشهده الحياة من متغيرات شاء "سعيد" أن يطلعنا على ما هو أشد دهشة وغرابة، لكنه أشار إلينا بالصمت ودخل إلى إحدى زوايا المرسم وحمل صورة كبيرة ووضعها أمامنا، كانت الصورة لرجل يشير بيده إشارة النصر، تطلعت مع "سعيد" إلى الصورة والى وجه صاحبها ولم نفهم القصد من ورائها، وضع سعيد الصورة جانباً وقال:

❖ هذه الصورة كلفني أتباع صاحبها على رسمها على شكل لوحة والذي ينوي صاحبها للترشيح للانتخابات القادمة ضمن حملة الدعاية الانتخابية.

وبحركة مسرحية قال سعيد:

❖ باختصار وحتى لا أسبب لكما التعب والتفكير، هذه اللوحة تعود للدكتور عامر سلمان قانون دولي صاحب المرسم القديم والذي تحوّل إلى مطبعة لتزوير العملة هل تذكرون؟

قلت بانفعال:

❖ كيف تحوّل مزور النقود إلى دكتور بالقانون الدولي؟

وأردف سعيد:

❖ أما أبوه أو شريكه في المطبعة فهو الآن شيخ وله مجلسه وأنصاره». (ص١٥٩).

«والمختار وأبنه صالح صارا من أكبر التجار ومن الذين يحتكرون السوق والصفقات والعقود، يا إلهي متى تنتهي المأساة ويموت اللصوص والإنتهازيون

والمزورون ويصبح الأتقياء والشرفاء سادة المرحلة. لا أتوقع أن تأتي مرحلة تخلو من مهرجي السيرك ومن المزيفين فهم الأقدر على احتلال الفراغ، فهم يملكون موهبة بيع أنفسهم ووجودهم دون حياء ولا شيء عندهم يخسرونه، أما الحقيقيون فيحكمهم الحياء واحترام الذات لذا فهم يبتعدون عن التسلق والزهد بكل شيء، تلك هي المحنة التي تتناسل في كل زمان، ولذا فإن اللصوص والمزيفين والملفقين وحدهم يتكررون في المشهد بينما ينزوي الأصلاء حباً بكرامتهم، فليهنأ اللصوص والأدعياء لأنهم سادة كل مرحلة يتقافزون مثل القرود وهم ينتقلون من غصن إلى غصن، وكلما سقطوا نهضوا بسرعة وعيونهم تلاحق ما يتساقط وفي الأرض. هؤلاء هم دود الأرض الذين يعتاشون على الغصن». (ص١٧٦).

«يا إلهي نحن وصلنا إلى زمن أغبر تماماً ماتت كل العواطف وأبيح كل شيء، هل من المعقول أن يهدد الابن أباه ويجعله يتشرد، ما الذي فعلته لك يا سامر، على أية حال سامحك الله وأنا تألمت عليك وما زلت متألماً». (ص١٨٦).

إنَّ ثقافة المواجهة ورفض الباطل تؤكد إنتسابية هذه الثقافة داخل كليانية الجماعة وهويتها، فبطل الرواية (جلال) يفصل بشكل دال ويتقدم السرد على الهوية الفرعية الضيقة لينخرط في استجابات الآخرين التعاطفي والانتسابي، مقاوماً الاستجابات الشيطانية البليدة لأشباه رجال يدّعون الرحمانية ويرتدون مسوح التقوى.

تيسر ثقافة المواجهة أداءً سردياً يعمل على إحياء التفاعل مع الآخرين، لا إعاقته، على تلطيفه، لا إرباكه، ولكن دون التضحية بتحديات الهوية الوطنية البازغة. «تمارس ثقافة المواجهة مقاومتها للطروحات الإيديولوجية المضلّلة، وتعيق تكاثر القوى السلطوية الطامحة إلى الهيمنة المطلقة على مقدرات الجميع من خلال التقييمات المتضمنة في الخطاب المباشر الموجه للآخرين، والذي يمتلك تأثيراً مزدوجاً يتمثل في تعزيز

المعاني الشعبوية وحفظ المعاني السامية»[1]، ويأتي تعزيز المعاني الشعبوية من خلال آلية "الإفشاء" العلني العام، أما حفظ المعاني السامية فيأتي عن طريق السكوت التام، لا يحكي البطل ولا يعرض كل شيء، ويقاوم بشكل ممنهج حتمية الاعتراف فاسحاً المجال إلى السرد التسجيلي ليوميات الحرب الطاحنة والحصارات الجائرة والمجاعات المنهكة وانعدام الخدمات الحيوية وفقدان الأمن لكي يأخذ دورته في الرواية.

إنَّ قوة الأداء السردي تكمن في مرونة تقدم الخط التسجيلي وهو يتجنب الإثارة وإستغلال المرويات الرسمية للأحداث والوقائع. يكشف السياق التسجيلي إنحيازة للهوية السردية بتوسطية التركيز على الوعي الذاتي للشخصية المحورية التي تناظر الوعي الذاتي لشخصية المكان (ذاكرة شارع الزعيم).

هذا التركيز الذي يفهم أن كل شخصي سياسي، وكل سياسي شخصي، وكيف صار الشخصي سياسياً. إنَّ الجسد الشخصي، في الصحة والمرض، في الصحو والغيبوبة موسوم بشكل خاص بما هو دنيوي ومادي في ظروفه وشروطه واحتمالاته الأنطولوجية بالنسبة للوجود فقط، وكيف يتم ذلك تحت أنظار الآلهة المسلطة والساخطة.

يعرض البطل المكاني و"شارع الزعيم" وكذا بطل الرواية "جلال" بوصفهما أداتين خلاّقتين في الحياة اليومية ذاتها، الراكدة والمتحركة، يعرضان قوة الحياة ليستعيدا جسديهما الفانيين، ويدركان صوتاً واحداً من الهوية التالفة بسبب المرض (أو الإندثار بالنسبة لشارع الزعيم) أو مجهولية الإنكسار أو عنف الخسارة، وبتحركهما في الحاضر السردي للرواية أو لحكايات المكان وتحولاته كفاحهما على الحدود الحافة، الخطرة، للضرورة والواجب بالنسبة للحياة والموت داخل دنيا واحدة هي وطن لا يوجد غيره لا في الأرض ولا في السماء.

(١) المثقف العربي، همومه وعطاؤه، مجموعة من المثقفين العرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص١٢٤.

يمتزج مثل هذا التوسل قطعاً، وهو دقيق ومحفوف بالأخطاء والإنحرافات وعدم النجاح المضمون، بإمكانية تجاوز السرد البيوغرافي (السيري) أو استرداده للتحصن بمآلاته المثمرة، وهذه هي محنة الرواية العراقية منذ تدشينها في بدايات القرن العشرين على يد "محمود أحمد السيد" (١٩٠١- ١٩٣٧) عندما أصدر روايته الأولى "جلال خالد" ولحد هذه اللحظة ونحن نشهد غزارة غير طبيعية في إنتاج الروايات وهي تندفع بقوة لوصف ومعالجة الحزن العراقي السرمدي، وأية محنة هي على أية حال؟ إذا كانت المحنة المزمنة تمثل مرضاً حقيقياً في جسد السلطة أو خسارة مؤلمة للسلطة والسيطرة وإمتلاك زمام الذات، أو انكساراً وطنياً بمثابة ورطة وطنية تأريخية بإمتياز، فالمحنة تبقى هي، هي، ثابتة، موجودة، لا تني تظهر بين أونة وأخرى لتذكر الكل بحضورها الكثيف الراسخ.

هل بمقدورنا مضاعفة هذه المحنة بأن نجعلها اسوأ بتركيزنا الشديد على استرجاع احباطات الماضي التليد؟ أو هل نبطل الاحساس بالمرض والإنكسار والخسارة لكي نمنح الرواية لوناً دنيوياً واضحاً وصافياً بمقدوره أن يضم لحظات إنسانية شجاعة تكتنف أناساً ما كانوا ليتمتعوا بها دون ذلك اللون الدنيوي الشفاف والمطيّف بدقة؟

والإجابة على هذا السؤال أو مقترح الإجابة وجدناه في رواية "شارع الزعيم" عندما لاحظنا أن هناك اندفاعاً جارفاً يعتري كل الشخصيات نحو الزواج حتى وإن كان متعدداً لتكريس الحياة وإنتاجها من جديد وتعويض الخسارات والكآبات والحيوات التي أكلتها الحروب ومفخخات الأخوة الأعداء.

الحضور الساحق للحياة في الحياة:

ليس من الضروري لسردية ما أن تعرض الأحداث بتسلسل منطقي وزمن خطي. ليس من الضروري أن تكون مبنية على مقاسات القوانين الكتابية المعمول بها، والقوانين القرائية المسموح بها، لكن من الضرورة الإبداعية أن تحاول الرواية التمرد على سلطة "الجزم" وقد أخذت شكل القانون النقدي، وأمامها في ذلك خياران متضادان مختلفان لا ثالث لهما:

- ❖ أن تكون مفهومة وتواصلية وسلسة، يعني أن تكون وثيقة الصلة بالمألوف الثقافي وتحترم أفق توقع القارئ.
- ❖ أن تكون خارقة وصادمة، يعني ذلك أن تكون متخطية للمألوف الثقافي، ومخالفة لأفق التوقع القرائي.

أمام المؤلف احتمالات كثيرة لتحديد المسارات الصحيحة التي يمكن أن تسير عليها سردياتنا، وتواصل مسيرتها إلى حيث المستقبل المفتوح على جميع الاحتمالات (فبمقدور المؤلف أن يحدد أحياناً الأساطير الثقافية الفاعلة في واقع يمور بالأساطير والحبكات والكنايات والإستعارات التي تلفنا من كل جانب ومكان، ومؤامرات الإمبريالية العالمية، ومؤمرات الجيران والخِلان)[1].

وفي لجيّة هذا التنور القيامي ينبثق فضاء التعبير السردي قوياً، شجاعاً، حيّاً، يساهم في إعادة بناء الذات المتلاشية، وبالوقت نفسه إعادة بناء الثقافة المحلية وسط فوضى التفاهة والزيف التي تعصف بتكاملنا من قمة الهرم وحتى القاعدة (إذا لم نقل القاع)، مع مراعاة تامة لحساسيات الحياة اليومية والحضور بقوة في هذه الحياة:

(١) المثقف والسلطة، محمد الشيخ، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص٦٧.

«- قال هوميروس: "ما أسرع ما يهرم الناس في الشتاء" الأحزان يا صديقي تجعل الإنسان كهلاً هرماً وهو في عِز الشباب، أما نحن فلا نحتاج إلى أن نهزم فلقد كنا شهوداً على ضياع أعمارنا في اللاجدوى واللامعنى.

فقلت وأنا أشعر بصوتي وقد إجتاحه حزن دفين: - لقد تقاسمت أعمارنا الحروب والحصار والعوز وإعتاش علينا المنافقون واللصوص، وما زلنا وليمة ينهشها الزمن بكل تقلباته. بالأمس كتبتُ مقالاً في الجريدة حمل عنوان "فقدان" تناولت فيه مشكلة أو ظاهرة إكتشفتها من خلال مراجعة الكثير للجريدة للإبلاغ عن شخص مفقود، ولاحظت وأنا أسير ببعض الشوارع وبالقرب من مظلات وقوف السيارات بأن هناك ورقة تحتوي على صورة وفيها إعلان عن فقدان شخص وهناك تفاصيل عنه، عمره ولونه والملابس التي يرتديها، وقلت أن مفردة "فقدان" بدأت تغزونا، فقدان في كل شيء وفقدان في كل مكان، فمتى سنعثر على أنفسنا وقد تحولنا إلى جزء من الفقدان العام». (ص١٦٥).

إنَّ بنية الهوية في هذه الرواية يمكن عدّها أساساً بنية لنمط معين من الزمن، وبخصوص الرواية التسجيلية أو رواية رصد ليوميات الحياتية (وحتى رواية السيرة الذاتية): «يغدو الزمن هو زمن البطل، زمن الحياة اليومية بكل ما فيها من حيوات وموجودات»[1]، ويلعب السرد دوراً حاسماً في عملية البناء هذه: بناء الهوية.

(١) الزمان والسرد ، الحبكة والسرد التاريخي، بول ريكور، ت: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، الجزء الأول، دار الكتاب الجديد، المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ص٤٦٥. ... لقد كرس "بول ريكور" كتابه المتبحر (الزمان والسرد/ ١٩٨٥) في أجزائه الثلاثة فرضية العمل التي انطلق منها في شكلها التخطيطي باعتبار السرد حارساً للزمان، ما دام الزمان لا يمكن التفكير فيه من دون زمان مروي، وقد أدرك هذا التطابق بين السرد والزمان للمرة الأولى في مواجهته بين النظرية الأوغسطينية (نسبة إلى القديس أوغسطين في اعترافاته) عن الزمان، والنظرية الأرسطية (نسبة إلى المعلم الأول أرسطو في كتابه: فن الشعر) عن الحبكة، وكان استمرار تحليلاته طوال ألف ومئتا صفحة استخلاصاً مترامي الأطراف من هذا التلازم الأولي وهو يستغيض بطريقة تضاعف الوساطات بين الزمان والسرد.

فزمن الرواية هو تأريخ أو سيرة حياة "شارع الزعيم".

وهوية الرواية هي هوية المكان العراقي المقاوم "شارع الزعيم".

لقد أنجز الكاتب "عباس لطيف" رواية هي عبارة عن درس أيديولوجي يعلمنا أنه ليس هناك ماضٍ خارج الحاضر «والأحداث التي نهتم بسردها وكذلك القضايا التي نطرحها فيما يتعلق بمعنى حياة الفرد تظل متحوصلة داخل اطار الحاضر المستمر الذي يلفنا بشميلته إنَّ كان خيراً أو شراً»[1].

هل حقاً أن الحاضر المستمر هو حقيقة حياتنا؟

وإذا كان الجواب بالإيجاب: هل هناك حدود للحقيقة التي يمكن أن نتحملها؟

إنَّ الحقيقة بالنسبة لرواية "شارع الزعيم"، هي شبح خفي، وهذا أهم ما جاء في منطوقات الرواية تصريحاً أو تلميحاً.

(١) يُنظُر: كتاب: ماذا عن غد؟ محاورة طويلة بين جاك دريدا وإليزابيث رودنيسكو، ت: سلمان حرفوش، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق، ط١، ٢٠٠٨، ص٢٤١.

الخاتمة

يعدّ مصطلح الهوية من المصطلحات التي زهرت في عصر الحداثة وما بعدها، وتوقفت عنده الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، وليس لمصطلح الهوية تعريف جامع مانع لأنه يختلف من ثقافة إلى أخرى ومن حقل علمي أو اجتماعي إلى آخر، ولقد حاولت رواية (شارع الزعيم) للكاتب عباس لطيف أن تؤكّد هوية المكان وقوّة الانتماء للشخصية الرئيسة في الرواية حتى تحوّل المكان (شارع الزعيم) إلى بطل محوري يشدّ كلّ الأحداث والشخصيات إليه، فالشارع يرتبط بإيقونة سياسية وطنية هو لزعيم عبد الكريم قاسم الذي كان نزيهاً وبطلاً شعبياً، والشارع المذكور سكنه الزعيم بعد نجاح ثورة تموز ١٩٥٨، وأخذ بريق اسمه من بريق اسم الزعيم وشعبيته .

المصادر

- بورخس كاتب على الحافة، بياتريث سارلوا، ت: خليل كلفت، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤.
- دلالات العلاقة الروائية، د. فيصل درّاج، مؤسسة غيبال للدراسات والنشر، نيقوسيا (قبرص)، ط١، ١٩٩٢.
- دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، د. سمير الخليل، دار الكتب العلمية- بيروت، ٢٠١٦.
- الذات عينها كآخر، بول ريكور، ت: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة- بيروت، ٢٠٠٥.
- الزمان والسرد ، الحبكة والسرد التاريخي، بول ريكور، ت: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، الجزء الأول، دار الكتاب الجديد، المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦.
- شارع الزعيم، رواية، عباس لطيف، دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ط١، ٢٠١٨.
- فضاءات النقد الثقافي، من النص إلى الخطاب، د. سمير الخليل، دار ضفاف- الشارقة/ بغداد، ٢٠١٨.
- في العقل والكتابة والختاره، جاك دريدا، ت: د. أمينة غصن، دار المدى، للثقافة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٢.
- كتاب: ماذا عن غد؟ محاورة طويلة بين جاك دريدا وإليزابيث رودنيسكو، ت: سلمان حرفوش، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق، ط١، ٢٠٠٨، ص٢٤١.
- المثقف العربي، همومه وعطاؤه، مجموعة من المثقفين العرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٥.

- المثقف والسلطة، محمد الشيخ، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩١.
- نحن والتراث، د. محمد عابد الجابري، دار الطليعة- بيروت، ط١، ١٩٨٠.
- الهوية والسرد، د. نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ٢٠٠٦.